

فتح القدير

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : 109 - { قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي } قال ابن الأنباري : سمي المداد مدادا لإمداده الكاتب وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء ويقال للزيت الذي يوقد به السراج مداد والمراد بالبحر هنا الجنس والمعنى : لو كتبت كلمات علم ا وحكمته وفرض أن جنس البحر مدادا لها لتنفذ البحر قبل نفود الكلمات ولو جئنا بمثل البحر مدادا لتنفذ أيضا وقيل في بيان المعنى لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب { لتنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي } وقوله : { ولو جئنا بمثله مددا } كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله { قل لو كان } وفيه زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها : أي لتنفذ البحر قبل أن تنفذ كلماته لو لم يجيء بمثله مددا ولو جئنا بمثله مددا والمدد الزيادة وقيل عني سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع قال الأعشى : .

(ووجه نقي اللون صاف يزينه ... مع الجيد لبات لها ومعاصم) .

فعبر باللبات عن اللبة قال الجبائي : إن قوله : { قبل أن تنفذ كلمات ربي } يدل على أن كلماته قد تنفذ في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية وقيل في الجواب إن نفاذ شيء قبل نفاذ شيء آخر لا يدل على نفاذ الشيء الآخر ولا على عدم نفاذه فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات ا بحيث لا تضبطها عقول البشر أما أنها متناهية أو غير متناهية فلا دليل على ذلك في الآية والحق أن كلمات ا تابعة لمعلوماته وهي غير متناهية فالكلمات غير متناهية وقرأ مجاهد وابن محيصن وحמיד ولو جئنا بمثله مدادا وهي كذلك في مصحف أبي وقرأ الباكون { مددا } وقرأ حمزة والكسائي قبل أن ينفذ بالتحتية وقرأ الباكون بالفوقية